التجسيم والتحديد

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

كيفَ نَرُدُّ على الـذين يَزعمونَ أنَّ كـلَّ مـا يقومُ بـه العلويُّونَ النُّصـيريُّونَ هو تَكييفُ الحقـائقِ الإسلاميَّةِ مع التَّجسيمِ والتَّحديدِ؟

إنَّ كلَّ الحملاتِ التي طالَتْ نهجَنا العلويَّ النُّصيريَّ الخصيبيَّ من قِبَلِ النَّاصِبَةِ والْمُقصِّرَةِ والْمُرتدِّينَ الخَوَنَةِ كانَ سـببُها التَّوحيدُ الحَقيقيُّ الذي ارتكزَتْ عليهِ عقيدَتُنا الحَقَّةُ، ورُدُودُ سـادَتِنا العظماءِ كسيِّدِنا أبي شعيب محمَّد ابن نُصَير (ع) وسيِّدنا الحسين بن حمدان الخصيبيِّ (ع) على أهلِ التَّجسـيمِ والتَّشـبيهِ والتَّعطيلِ والإنكارِ، فَمَا كانَ من أولئكَ الْمُشـبِّهين والْمُعطِّلين إلاَّ اتِّهامَنا بما ليسَ فينا.

فالنَّاصِـبَةُ والْمُقصِّرَةُ والْمُرتدُّونَ الخَوَنَةُ لا يَبحثونُ ولا يُمحِّصونَ في كُتُبِ سادَتِهم، ويَنسِبُونَ لنا التَّجسيمَ دونَ تَدقيقٍ في أنَّ التَّجسيمَ والتَّحديدَ لذاتِ اللهِ في كُتُبِـهِم قائمٌ، وسأعرضُ ما جاءَ فيها، وما هي الرُّدودُ العلميَّةُ عليها.

لا تَخلو كتبُ من يُطلَقُ عليه لقبُ (شـيخ الإسلام ابن تيميَّة) مِن تَجسيمِ الإلهِ عزَّ شأنُهُ، فمِن ذلك قولُهُ الْمَشـبوهُ: (إنَّ اللهَ يجلسُ على العرشِ، وقد أخلى مكانًا يَقعدُ فيه معهُ رسـولُ اللهِ!!)، وقولُهُ الْمَشـبوهُ في كتابِ (مجموعِ الفتاوى): (إنَّ محمَّدًا يُجلِسـهُ ربُّهُ على العرشِ معهُ!!)، وقولُهُ الْمَشـبوهُ في نفسِ الكتابِ: (إذا جلسَ اللهُ على الكرسـيِّ سُمِعَ له أطيطٌ كأطيطِ الرَّحلِ الجديدِ!!)، وكأنَّ اللهَ ملكٌ جالسٌ على السَّريرِ في مكانٍ مرتفعٍ ينظرُ إلى العالمِ تحتَهُ!! وكأنَّه جسـمٌ كبيرٌ لَهُ ثقلٌ على العرشِ وهو يَئِطُّ كما يَئِطُّ الرَّحلُ حينما يجلسُ عليه الإنسانُ الثَّقيلُ!! مؤكِّدًا هذه الفكرةَ في كتابِهِ (تلبيس الجهمية) بقولِهِ الْمَشـبوهِ: (إنَّ اللهَ على العرشِ والْمَلائكةُ حَمَلَةُ العرشِ تَشـعُرُ بثِقَلِ الجبَّارِ!!)، وهو يَستندُ في مقولتِهِ الْمَشبوهةِ إلى حديثٍ منسوبٍ زورًا لرسولِ اللهِ (ص) وردَ في سُنَنِ أبي داود وغيرها.

وتابعَ تلميذُهُ ابنُ القيِّمِ الجوزيَّة على مَســـلَكِه الْمُنحرفِ بقولهِ الْمَشـــبوه في كتاب (بدائع الفوائد): (إن اللّهَ يُجْلِسُ رسـولَهُ معهُ على العرشِ.. ولا تُنكِرُوا أنَّهُ قاعدٌ ولا تُنكِرُوا أنه يُقعِدُهُ!!)، كما وردَ في كتابِ (طبقاتِ الحنابلةِ): (واللّهُ عزَّ وَجَلَّ على العرشِ، والكرسيُّ موضعُ قدميهِ).

ويؤكِّدُ ابنُ تيميَّةَ على تجسـيمِ إلهِهِ بقولِهِ الْمَشـبوهِ: (إنَّ النَّبيَّ يذكرُ أنَّهُ رأى ربَّهُ في صـورةِ شـابٍّ مُوفرٍ رِجلاهُ في خضرٍ علَيه نَعْلانِ مِن ذهب على وجْهِهِ فراشٌ مِن ذهَب) في إشارةٍ إلى يزيد بن معاوية (لع)، لأنَّ مغازلاتِهِ ومحاباتِهِ للفرقةِ اليزيديَّةِ الْمُغالِيَةِ بيزيد وعدَيِّ بنِ مُســـَافِر تؤكِّدُ ذلكَ في مقدِّمةِ كتابهِ (الوصيَّة الكبرى).

وحتَّى يُثبـِتَ ابنُ تيميَّةَ شُـــبهةَ التَّجسـيمِ زعمَ قائلاً: (ليسَ في كتابِ اللّهِ ولا سـنَّةِ رسولِهِ ولا قول أحدٍ من سـَلَفِ الأمَّةِ وأئمَّتِها أنَّه ليسَ بجسمٍ وأنَّ صِفَاتِهِ ليست أجسامًا وأعراضًا!!)، وزعمَ أنَّ آياتِ التَّنزيهِ كقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) وقوله: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا): (لا تدلُّ على نفي الصِّفاتِ بوجهٍ من الوجوهِ ولا على نَفي ما يُسمِّيهِ أهلُ الاصطلاحِ جِسمًا بوجهٍ من الوجوهِ!!).

ولا غرابةَ في أنَّ الشِّيعةَ الْمُقصِّرَةَ لا تَخلو كُتُبُهم من التَّجسيم أيضًا، فها هو مَن لُقِّبَ (حجَّةَ الإسـلامِ ميرزا محمَّد تقي) يقول: (إنَّ اللّهَ تعالى يَزورُ الحسـينَ ويُصافِحُهُ ويقعدُ معهُ على سريرٍ!!)، ويقولُ في موضعٍ آخر: (يَزورُهم الرَّبُّ تعالى ويُصـافِحُهم ويَقعدونَ معه على سـريرٍ واحدٍ لاتِّحَادِ حُكْمِ العبوديَّةِ مع حُكْمِ الرُّبوبيَّةِ!!).

كما وردَ عن الْمُلَقَّبِ (صـدر الْمُتألِّهينَ محمَّد بن إبراهيم صـدرِ الدِّين الشِّيرازي) قولَهُ الْمَشبوهَ في تفسـيرِ القرآن الكريم: (النَّارُ لا تزالُ متألِّمَةً لِمَا فيها من النَّقصِ وعدمِ الامتلاءِ حتَّى يَضـَعَ الجَبَّارُ قَدَمَهُ فيها، وهي إحدى تينكَ القدمَين الْمَذكورَتَين في الكرسـيِّ!!)، يوافِقُهُ الطباطبائي في (تفسـيرِ الْمِيزان) بقولِهِ: (إنَّ اللّهَ وَضَعَ القدمَ على النَّارِ، مُستندينَ إلى حديثٍ منسوبٍ زورًا لرسولِ اللّهِ (ص) في دَرَرِ السُّيوطي.

إنَّ شُـبهةَ التَّجسـيمِ التي وقعَ فيها أهلُ الغلوِّ هؤلاء قد حذَّرَ منها الإمامُ الصَّادقُ علينا سلامُهُ بقوله: (إنَّ الغُلاةَ شـَرُّ خَلقِ اللّهِ، يُصـَغِّرونَ عظمةَ اللّهِ)، ومن هنا انطلقَ سـيِّدنا الخصـيبيُّ (ع) في مواجهةِ شُبهَةِ التَّجسيمِ حينَ أكَّدَ على تَجريدِ اللّهِ تعالى عن التَّجسيم والعِلَلِ بقوله:

وَلا تَجَسَّـــمَ في جِسـمٍ أحاطَ بِـهِ جَلَّ الْمُهَيمِنُ عَن تَحديدِ ذي حَدَدِ

فمَن زَعَمَ أنَّ اللهَ حَلَّ بجِسمٍ فقد حَدَّهُ وَبَعَّضَهُ، وَمَن زَعَمَ أنَّه بذاتِهِ ماهيَّةٌ أو جسمٌ أو جسدٌ فقد شَبَّهَهُ بخلقِهِ، كما قال تعالى: (لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)، بدليلِ قولِ أمير المؤمنين الإمام علي (م): (لا تَقَعُ الأوهامُ لهُ على صفَةٍ، ولا تُعْقَدُ القُلوبُ منهُ على كيفيَّةٍ، ولا تَنَالُهُ التَّجزئةُ والتَّبعيضُ).

فالتَّجلِّي في نهجِنا العلويِّ النُّصيريِّ الخصيبيِّ يعني أنَّ الوجودَ مبنيٌّ على الْمَعرفةِ الْمَشهودةِ للحقِّ، لأنَّ معرفةَ الآياتِ البيِّناتِ بدايةُ طريقِ العبادةِ لقولِ أمير المؤمنين الإمام علي (م): (أوَّلُ الدِّينِ معرفَتُهُ)، لكنَّ هذا لا يَعني التَّجسيمَ، لأنَّ التَّجسيمَ يَقتضي الحلولَ والجنسَ، واللهُ تعالى لا جِسْمَ له لِتَتركَّبَ عنه الأجسامُ الْمُمكِنَةُ لقول أمير المؤمنين الإمامِ علي (م): (لطيفٌ لا بتَجَسُّمٍ، موجودٌ لا بَعدَ عَدَمٍ)، كما أنَّهُ تعالى لا يمكنُ أن يكونَ جسمًا لقول الإمام الصَّادق علينا سلامُهُ: (إنَّ الجسمَ مَحدودٌ مُتَنَاهٍ، وهو مُجَسِّمُ الأجسامِ).

إنَّ الْمُجسِّمَ ابن تيميَّةَ لم يكنْ لِيَحْتَمِلَ أحاديثَ أهلِ العصمةِ (ع) في إفرادِ الباري تعالى عن التَّجسيمِ، فسقطَ وأسقطَ مَن تَبِعَهُ من السُّنَّةِ بالتَّحديدِ والتَّشبيهِ حينَ جعلَ اللهَ خاضعًا للحدِّ الْمَكانيِّ بقولِهِ الْمَشبوهِ: (الباري سبحانَهُ وتعالى فوقَ العالمِ فوقيَّةً حقيقيَّةً وليست فوقيَّةَ الرُّتبةِ!!)، ولم يَختلفْ هذا عن اشتباهِ الشيعةِ الْمُقصِّرَةِ في كتاب (الأصول الستة عشر) حيث تَدَاوَلوا روايةً مزوَّرةً تقولُ: (إنَّ اللهَ ينزلُ في يومِ عرفةَ في أوَّلِ الزَّوالِ إلى الأرضِ على جَمَلٍ أفرَقٍ يُصَالُ بفَخديهِ أهلَ عرفاتَ يمينًا وشمالاً!!)، فهذه الأقوالُ فيها تحديدٌ للهِ تعالى وإيقاعٌ له تحت الحدِّ والتَّشبيهِ، وهذا واقعٌ في مزاعمِ ابن تيميَّةَ في قوله في كتابه (التَّأسيس في ردِّ أساسِ التَّقديس): (قُلتُم: ليسَ هو بجسمٍ ولا جوهرٍ، ولا مُتَحيِّزٍ، ولا في جهةٍ، ولا يُشارُ إليه بحِسٍّ، ولا يتميَّزُ منه شيءٌ من شيءٍ، وعبَّرتُم عن ذلكَ بأنَّهُ تَعَالى ليسَ بمُنقَسِمٍ ولا مُركَّبٍ، وأنَّه لا حدَّ له ولا غايةَ، تريدونَ بذلكَ أنَّه يَمتنِعُ عليهِ أن يكونَ لَهُ حَدٌّ وقَدْرٌ، أو يكونَ له قَدْرٌ لا يَتَناهَى... فكيفَ سَاغَ هذا النَّفي بلا كتابٍ ولا سُنَّةٍ!!). وقد حذَّرَ سيِّدنا الخصيبيُّ (ع) مِن شِركِ التَّحديدِ حين قال:

وَلا هُوَ الشَّيءُ مَحدودًا يُحَدُّ وَلا لا شَيءَ كانَ فَيُنفى نَفيَ ذي جَحدِ

مُستَنِدًا لقولِ أميرِ المؤمنين الإمامِ علي (م): (لا يُشْمَلُ بحدٍّ، ولا يُحْسَبُ بعَدٍّ، وإنَّما تَحُدُّ الأدواتُ أنفُسَها، وتشيرُ الآلاتُ إلى نظائرِها)، وقوله: (لا يُدرِكُهُ بُعْدُ الهِمَمِ، ولا ينالُهُ غوصُ الفِطَنِ،

الـذي ليس له حَدٌّ مَحدودٌ، ولا نَعتٌ مَوجودٌ، ولا وَقتٌ مَعدودٌ، ولا أجَلٌ مَمدودٌ، فَمَن وَصـــفَ اللهَ ســـــــبحانَهُ فقد قَرَنَهُ، ومَن قَرَنَهُ فقد ثَـنَّاهُ، ومَن ثَـنَّاهُ فقد جَزَّأهُ)، ولو كانَ مَحدودًا لكانَ جِسْـمًا، ولا يَجوزُ أن يكونَ الباري جسمًا وإلاَّ كانَ شبيهًا بالخلقِ وهذا مُحالٌ.

والخلاصةُ:

إنَّ مَن ذكـــرَ ذاتَ اللهِ بالتَّحديدِ فقد مَرَقَ من الدِّينِ، لأنَّ ذاتَ الباري تعالى لا يَليقُ بها شيءٌ من الْمَعقولاتِ ولا الْمَحسوساتِ، لقولِ الإمامِ الصَّادقِ علينا سلامُهُ: (إنَّ اللهَ لا يُشبِـهُ شَيئًا ولا يُشبهُهُ شَيءٌ)، فهو إذنْ معروفٌ قبلَ الحدودِ، لا حَدَّ لِذَاتِهِ، ولا شـــيءَ أكبرُ منهُ فَيَســتُرُهُ، ولا شــبيهَ له ولا نظيرَ ولا ضِدَّ ولا نِدَّ، وهذا هو ميزانُ التَّوحيدِ الخصيبيِّ الذي ثَقُلَ على الْمُجَسِّـــمينَ الْمُتلبِّســـينَ بلباسِ الإســـلامِ، فَحَاولوا التَّمويهَ على أنفســِهم ورَمْيَنا بالتُّهمةِ، ولكنَّهم لن يَنالوا مُرادَهم لأنَّ كلامَ الحقِّ الْمُنيرَ لا تُطفِئُـهُ ظلمـةُ الظَّـالِمينَ مهمـا جـارَ الزَّمـانُ، لقولـه تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني العلوي الدكتور أحمد أديب أحمد